تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

حول مشكلة الأداء النفسى مرة أخرى :

فى بريد العدد الماضى من الرسالة ، طالعت كلمة وجهها إلىّ الأديب الفاضل عبدالمنعم سلمان مسلم حول مشكلة الأداء النفسى فى الشعر العربى ، ولا يسعنى قبل الرد عليه إلا أن أبادر بشكره على تلك التحية الكريمة التى شاء ذوقه ولطف مودته أن يخصنى بها هذا القلم !

يقول الأديب الفاضل بعد تحيته : « ولكننى لا أوافقك ، بل أعتب عليك عتباً كبيراً حينما تصب حكمك القاسى على الشعر العربى القديم جملة واحدة ، هذا التراث الذى نفخر به على مرّ الزمن ، هذا التراث الذى جعلته حواء من الروح والعاطفة . إنك بهذا الحكم تهدم حضارة ، وتبعثر أمجاد أمة ، وأنا أعيذك من هذه النظرة ، وأرجو أن تراجع نفسك ، وتستشير ذوقك وحسك ، وأنا موقن أنك لن ترضى لنفسك أن تسم الشعر العربى بهذه السمات : « شعر السطوح الخارجية » ، شعر يشعرك بفراغ « الوجود الداخل » عند قائليه ، لأنهم كانوا يعيشون خارج « الحدود النفسية » ... »

ثم يقول الأديب الفاضل بعد ذلك : « ألم تقرأ شعر المتنبى ؟ اقرأه فى السينيات والكافوريات ، فتراه شعراً منبثقاً من أعماق النفس ، هو فى ظاهره مديح ، ولكن وراء هذا معان كلها أثر للاحساس النفسى والانفعالات الحزينة تارة ، المريرة أخرى ، الساخرة كثيراً . واقرأ شعر ابن الرومى فى رثائه ومدحه وهجوه ، فهو صادر عن نفس حساسة شاعرة ، وألفاظه شفافة موحية . واقرأ فى كل عصر من عصور الأدب ، فستجد شعر النفس ، وصدق الفن فى أكثر ما تقرأ » ...

هذه هى الكلمات واللفتات التى تحفل بصدق الغيرة على تراثنا العربى القديم ممثلاً فى الشعر ، وهى غيرة من حقّ صاحبها علىّ أن أحمدها له ، مهما بعدت الشقة بينى وبينه ، واختلفت وجهات النظر ... أما عن حكمى على الشعر العربى ، فأنا لا أصدر حكماً إلا وأنا مؤمن به ، ولا أسوق رأياً إلا وأنا مطمئن إليه ؛ ذلك لأننى ما نظرت فى فن من فنون الأدب إلا وأنا أنشد الدراسة بغية التقويم ، وإطالة التأمل رغبة فى النقد ، وإنعام الفكر سعياً إلى كشف غامض أو جرياً وراء تقرير مذهب ؛ فلك هى عادتى كلما تناولت أثراً من آثار الفن وكلما لقيت رجلا من رجاله ، سواء أكانت اللقيا فى عالم الأحياء أم فى عالم الشعور والسطور ... من هنا أود أن أقول الأديب الفاضل إننى ما وسمت الشعر العربى القديم بتلك السمات ، إلا بعد أن صاحبته مُصاحبة كانت فى حساب الزمن خمسة عشر عاماً ، وكانت فى حساب الدراسة النقدية خمس عشرة مرحلة ، فى كل مرحلة منها ما شاء من إعادة النظر ، وما شاء من تقليب الرأى ، وما شاء من مراجعة النفس ، وما شاء من استشارة الذوق والحس والوجدان !

أنا يا صديقى لا أنكر أن فى الشعر العربى القديم لوامع رائعة من الأداء النفسى ، ولكنها كما قلت لوامع تطغى عليها تيارات الأداء اللفظى ، ذلك الأداء الذى يعنى بمادية التعبير أكثر مما يعنى بظلاله النفسية ... إن الأداء النفسى موجود فى شعر المتنبى كما هو موجود فى شعر ابن الرومى والبحترى وأبى تمام وما شئت من كبار الشعراء ، ولكن أى وجود ؟ إنه وجود لا يملأ سمع المتذوق لهذا اللون من الأداء ، ولا يحيط بمنطقة الشعور تلك الإحاطة الكاملة التى تلتمسها فى الإثارة الوجدانية ... عندهم إثارة ، نعم . ولكنها الإثارة التى تنبثق من ثنايا الذهن لا من شغاف القلب ، وتنطلق من وراء اللسان لا من حنايا العاطفة ؛ وتلك هى الإثارة العقلية التى دفعت بهم إلى خارج « الحدود النفسية » كما قلت ، وبعدت بهم عن أن يكونوا قمماً من قمم الأداء النفسى الذى أشرت إليه !

لقد كان الشاعر القديم لا يخلو إلى نفسه إلا فى القليل النادر ولقد كان مشغولا عنها بأعراض الحياة ومطالب العيش ومظاهر التلبية على الأقران والتشوف إلى الوقوف بباب السلطان ، ولذلك ضرب بجناحيه فى كل أفق وبقى أفق واحد عزّ عليه أن يحلق فيه ، وهو أفق الخلوة إلى النفس والتحدث إليها والتعبير عما يجيش بداخلها من شتى الانفعالات والخلجات ... لو خلص الشعراء القدامى لأنفسهم وخلصت لهم ، وتفرغوا للتأملات الذاتية فى شئ من الاستجابة الصادقة لنداء الشعور الصادق ، لبدوا عمالقة فى

ميدان لم يطارقوة مرة إلا ارتدوا عنه مرات ، ولاغترفوا من نبع لم يحوموا حوله لحظة إلا وضلوا عن طريقه لحظات ، جرياً وراء السراب ؛ سراب الصنعة اللفظية والذاتية البيانية !

ومع ذلك يذهب الأديب الفاضل إلى أن المتنبي وابن الرومي ينفذان من نطاق النقد الذي أقمته حول بناء الشعر العربي القديم ، فهل يتفضل بتقديم قصيدة لهذا وأخرى لذاك يتخيرهما من روائع الشاعرين ، لنستطيع أن نضعهما فوق مشرحة الدراسة النقدية ، مستخدمين مبضع التحليل على ضوء الأصول الفنية التي عرضت لها في مشكلة الأداء النفسي في الشعر ؟ إنني على استعداد لتشريح أية قصيدة تقدم إليّ من الشعر العربي القديم ، وعلى استعداد لأن أثبت لقدمها في غير تجن ولا مغالاة ، أن أية ومضة نفسية يمكن أن تشع في بيت من الشعر هنا ، ستقابلها عشرات الومضات اللفظية في كثير من الأبيات هناك ... وهذا هو الحد الفاصل بيني وبين من يختلفون معي في الرأي حول الشعر العربي القديم !

نترك هذا كله لنرد على اللفتة الأخيرة في كلمة الأديب الفاضل حين يقول : « لقد جعلت « شوقي » زعيم مدرسة في حسن الأداء النفسي ، لأنه يملك الصدق في الشعر والصدق في الفن ، وجعلته قريناً لشاعر آخر ... والمعروف أن المدرستين مختلفتان في كثير من السمات والوجوه ؛ فشوقي في رأيي يحفل بالصدق الفني ، ويتأنق في عرض الصورة البيانية ، فطابع الصدق الفني أغلب في شعره من الصدق الشعوري ، ولعلي قد أشرت إلى مكانة شعره حين أفضت في الحديث عن مكانة ذلك الأداء في موازين النقد ... وللأديب الفاضل خالص الشكر وعاطر التحية .

إلى الصديق الفاضل صاحب « بيروت المساء » :

قرأت في آخر عدد تلقيته من جريدتكم منذ أيام ، مقالاً كتب تحت عنوان ضخم : « المساوى يتهجم على أدباء لبنان » ... وكان مصدر الثورة أنني قلت للأستاذ سهيل إدريس على صفحات « الرسالة » وأنا أتحدث عن قصته « سراب » ، مشيراً إلى جملات خصومه من كتاب لبنان على إنتاجه القصصي : « ... فلم لا ترفع معول الهدم لتهوي به على الأصنام ، ولم لا تشق طريقك على أشلاء الجثث المحنطة في توابيت الأدب » ؟ !

قلت هذا للأستاذ إدريس بالأمس ، فإذا أحد كتابكم يهاجمني اليوم على صفحات « بيروت المساء » مؤكداً أنني قد

ولا بأس من توضيح هذا الاختلاف الذي يبدو في المظهر لا في الجوهر بأن نقول : إن شعر المدرستين أشبه بثوبين أخرجهما مصنع واحد من نسيج واحد ، ولكن العامل الذي ابتكر تلوين هذا الثوب غير العامل الذي ابتكر تلوين ذاك ...

ولقد سبق أن قلت : إن الأداء النفسي في الشعر ، لا بد أن يقوم على دعامتين لا غنى لإحداهما عن الأخرى : دعامة الصدق الفني ودعامة الصدق الشعوري ، ومعنى هذا أننا إذا قلنا إن شعر شوقي يغلب فيه طابع الصدق الفني ، فقد أخرجناه بعض الإخراج من دائرة الأداء النفسي ، وكذلك ينطبق القول على أبي ماضي إذا ما حكمنا بالغلبة لطابع الصدق الشعوري في شعره ... إذ لابد من المساواة بين الصدقين لتكتمل العناصر الفنية المتفاعلة لتكوين المزيج الأخير ، ونعني به مزيج الأداء النفسي في شعر الشاعرين أو شعر المدرستين !

أما عن رأيي في مكان شوقي بين الشعراء ومكانة شعره في نفسي ، فقد أبديت هذا الرأي من قبل ، هناك في « تعقيبات » العدد (٨١٥) من الرسالة ، تحت عنوان « لحظات مع أمير الشعراء » ، ومهما يكن من شيء ، فإن رأيي في شعر الرجل ، هو رأيي في شعر الأداء النفسي ، ولعلي قد أشرت إلى مكانة شعره حين أفضت في الحديث عن مكانة ذلك الأداء في موازين النقد ... وللأديب الفاضل خالص الشكر وعاطر التحية .

إلى الصديق الفاضل صاحب « بيروت المساء » :

قرأت في آخر عدد تلقيته من جريدتكم منذ أيام ، مقالاً كتب تحت عنوان ضخم : « المساوى يتهجم على أدباء لبنان » ... وكان مصدر الثورة أنني قلت للأستاذ سهيل إدريس على صفحات « الرسالة » وأنا أتحدث عن قصته « سراب » ، مشيراً إلى جملات خصومه من كتاب لبنان على إنتاجه القصصي : « ... فلم لا ترفع معول الهدم لتهوي به على الأصنام ، ولم لا تشق طريقك على أشلاء الجثث المحنطة في توابيت الأدب » ؟ !

قلت هذا للأستاذ إدريس بالأمس ، فإذا أحد كتابكم يهاجمني اليوم على صفحات « بيروت المساء » مؤكداً أنني قد

ما أنت إلا ابتسام الله جادبه
ورحمة الله عمت كل محروم
وهى خواطر يفوح منها عبير الشعر .

وقد قال :

يا أم كلثوم بعض الشر مارحت
آثاره تتجلى فى مآثره

ثم أعقب هذا بأبيات تحدث فيها عن اعتلال أم كلثوم والأسى له ، وحمد الله على أنه عاد للروض بهجته ثم قال :

ألم أقل لك إن الشر مارحت
آثاره تتجلى فى مآثره

ولم أفهم آثار الشر ومآثره ولا موقعها مما بين البيتين ، ولعله يريد بمآثر الشر فرصة التكريم التى كان أول سببها محنة المرض ، ولكن كيف تتجلى فيها آثاره ؟

أما الدكتور ابراهيم ناجى فيظهر أنه كد شاعريته فى هذه القصيدة حتى أتمها فرض على أن يحلق ، فحلق ، ولكن جناحيه لم يقويا كثيراً على التحليق ، فجاءت القصيدة أقل من مستوى شعره . ومن تحليقه قوله :

تسمعى ، فى الملى همس وأغنية
أذاك صوتك أم فى الخلد تتزيل
على الترى لك أكباد مصفقة
وفى السموات إكبار وتهليل

وقوله محدثاً عن الفن :

وحسبه وتطوف منك دانية
بأنه فى وجوه العيش تجميل
فما أبدع صورة الحياة مجملا وجهها بآيات الفن !

وقد قال عن النيل يرنو نحو أم كلثوم :

جرى النسيم على وجه الغدير به
كأنه فى شفاه الفن تقبيل

وأدع لفظ « الغدير » قلقاً فى موضعه هنا ، وأنظر فى جرى النسيم على صفحة الماء ، هل يصلح تقبيلاً فى شفاه الفن ؟ وما جدوى تمثيل الفن شخصاً له شفاه فيها تقبيل يشبهها النسيم ؟ ألا أستطيع أن أخرج من ذلك بشىء .

وألقى الأستاذ كامل الشناوى قصيدة حاول فيها أن يخدع برنات كلماتها وقوافيها ، وهذا مطلعها :

غديتها منحة ، السحر أعطاها
والسحر والشعر شىء من عطاياها

وفيه ترى السحر من عطاياها وهى من عطايا السحر ... أى أنهما يتعاطيان أو قد جانبه التوفيق « الذوق » فى مقارنته بين أم كلثوم وانقسام القوة ... لأنهما يتنافسان على المجد فى هذا الأوان ! ويتساءل أيهما أولى بالمباهاة ، ويجيب :

الفن ، أولى فتيه رحمة وهدى
الفن قبلة تأسو ضظاياها

شكول الأسبوع

... مى (١٤ أكتوبر) الذكرى السابعة ... شوق بك و نعرف أنى لم أر فى صحيفة ... من ذكرى فى هذا اليوم ، أقلا نخصر نا ... يوم لسان شوقى » .

... ة الحارجية أنه سيقام مهرجان للاحتفال ... وسيقام شوقى فى شهر ... القادم ،

... عب من الضريبة فى الترف على البيان ،

... لموى فى الجلسة الماضية فتح باب الترشيح ... حلا بوفاة النارلى على أن يقفل بعد شهر ... المرشحين الممكنين الحالين من قبل بوفاة الدكتور ... ومستشرق فينسنر . وقد رشح إلى الآن اثنان هما ... والدكتور أحمد عمار .

... أن الدكتور طه حسين ... فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة ... فى مستهل المحاضرة الأولى عن تقدير الأوساط ... لحسنات البريطانية - وقال إنها تلقن الناس حرية ... وقول لهم إنهم يطلقون هنـاك على الدكتور طه ... الضرير .

... الدكتور طه حسين بك للحصول على جائزة نوبل ... وقد أيد ترشيحه الكاتب الفرنسى أندريه ... الجائزة فى العام الماضى ، وانضم إليه فى تأييد هذا ... أحد المستشرقين الفرنسيين وهو المستشرق ماسينيون

... الأستاذ كامل كيلانى — ليلة الاحتفال بإلقاء المحاكم ... : يقال إن الرجل أى جن وذهب عقله ، فهل كانت ... ؟ وهل هى جنونة ؟

... الأستاذ سامى العظم بك إنه لما كان وكيلا لوزارة ... لاحظ من الإحصاء أن كل القضايا التى تقدم بها ... فى سوريا تحكم لهم فيها ضد السوريين . فذكر ذلك أمام ... وقال له : إنه لا داعى إلى وجود محاكم الأجانب فى ... فى تحمل وزارة المالية المبلغ الذى يطلبه الأجنبى ... مجموع ذلك ما تنفقه خزانة الدولة على محاكم ...

... الذى يجرى غدا يوم الجمعة الماضى ، حفلة استقبال ... من سفارة الباكستان ولفيف من الأدباء ... وقد تكلم الدكتور حسين الهمدانى الملحق ... فعبر عن سروره بالفرصة التى تهيأ ... للتقرب ، وأشاد بالصلات الروحية التى تربط بين ...

... حسين بك فى كلمته الأخيرة بالجمع اللغوى : ... الفعل المبنى للمجهول ، إلا فى قولهم : ... على .

ولست أدرى كيف يكون الفن رحمة وهدى وقنبلة ذات شظايا — ولا إخال الأستاذ إلا ممازحاً بأن جعل شظايا القنبلة تأسو ولكنا لا نأمنها ، وما انفجار الذخيرة فى جبل القطم ببعيد .

وفى القصيدة أبيات لا بأس بها منها :

العوت بعض هداياها وقد نتنت ... به الخلود فأمسى من هداياها

السندباد البحرى :

عرض أخيراً بسينما (ديانا) فلم « السندباد البحرى » وهو معرب بأصوات ممثلين وممثلات مصريين ، والفلم يقوم على أسطورة من أساطير «ألف ليلة وليلة» فيعرض مغامرات السندباد البحرى العجيبة ، وما تعرض له خلالها من أهوال ، وما بذله من جهود خارقة فى التغلب عليها ، فقد أغرق « الأمير أحمد » وأخذ (مدالیته) السحرية التى مكنته من قهر خصومه وخاصة الأمير الهندى الذى ينافسه فى حب الأميرة الجميلة ، وأخيراً يدعى أنه الأمير أحمد ويذهب إلى أبيه — أبى الأمير — « اسكندر » كاتم سر «الكنز» الذى يبوح بالسر له وللأمير الهندى ورجل آخر يدعى « عبد الملك الحلاق » فيفرح هذان بمحتويات الكنز ولكنهما يموتان دون الانتفاع بشىء منها ، أما السندباد البطل المغوار فيفوز بالأميرة الفاتنة ولا يلق بالا إلى المال .

ويقال فى تقديم هذا الفلم إنه يمثل سحر الشرق وعظمة الشرق ، وأنا — والله — لم أجد فيه للشرق رائحة ، فضلا عن السحر والعظمة — ولكن أقول إنه يمثل الشرق الذى يتصوره أولئك الغربيون أو يحلو لهم أن يتصوروه ، لا فى هذا الفلم فقط بل فى أشباهه « كلص بغداد » و « ألف ليلة وليلة » من تلك الخرافات التى يحب الغربيون أن يتخذوا منها صوراً لحياة البلاد الشرقية فى العصور الماضية ، وكأنهم يهربون مع خيـــال هذه الأساطير من واقع الشرق نفسه فى تلك العصور ، كما يهرب من يزور مصر منهم من حاضرها وحياتها المعاصرة إلى الأهرام وأبى الهول .

وليتهم يوفقون فى تصوير الروح الشرقية والجو الشرقى فى تلك الأفلام التى نرى فيها أشخاصاً وأشياء لا هى شرقية ولا غربية فهم يمسخونها كما يمسخ بعض المؤلفين والمخرجين عندنا الأفلام الغربية ويدعون أنها مصرية مؤلفة ، هؤلاء كأولئك ، حذو القلم بالقلم .

وفلم « السندباد البحرى » يعرض بالألوان الطبيعية ، ولم يختارون أجمل الممثلات فى مثل هذا الفلم ، وأعترف بعبقرية المخرج إذ قدم لنا « الأميرة الفاتنة » كأى فتاة عصرية فى كل شىء ، تلبس الشباب (على آخر موضة) ! والممثلون يلبسون (البنطلونات) وأجسامهم الحمراء تتطق بـ (السكسونية) الصارخة ، يختلط كل ذلك بمناظر التعذيب المفزعة إذ تهوى السياط على الأبدان فتمزقها كما كان يصنع الشرقيون فى غابر الأزمان وسالف العصر والأوان!

ويظهر أن المشاهدين يصبرون على متابعة الفلم ، مستمدين الجلد عليها من القوة السحرية الخارقة التى يتمتع بهـا السندباد البحرى ، على الرغم مما يلاقونه من أهوال فى تلك المشاهدة ، كأهوال السندباد . ولكنه يخرج من أهواله بالأميرة الحسناء ، أما نحن — المساكين — فنخرج مصدعى الرءوس ، وقد يذهل الفتى عن فتاته التى دخلت معه متعلقة بذراعه .

حقاً إن السندباد خطب فى آخر الفلم ، مبيناً أن المال لا قيمة له فى سعادة الإنسان ، وإنما السعادة الحقيقية هى سعادة القلب والفكر ومن أجل ذلك داس جواهر الكنز ولم يعبأ بها مكتفياً بفاتنته الأميرة ، ولكن الفلم لم يعرض لنا ذلك عرضاً عملياً يجعلنا نستخلص العبر من الحوادث ولم يضعنا فى جو طبيعى ندرك منه ذلك ؛ وقد يقال إن القصة خرافة ، ولكن ما هدف هذه الخرافة غير قلب الصاغ بتلك الحوادث التى لا تحمل متعة فنية لذوق سليم ، وغير وقع القلب بالوعظ فى آخر الأمر ؟

والذى يؤسف له أن يكون ذلك هو ثمرة تعريب الأفلام (دبلجتها) وقد كتبت فى هذا الموضوع عند ما هب السينمائيون المصريون يمارسون تعريب الأفلام فى العام الماضى ، وبينت أن هذه المعارضة حركة تجارية ، وأن الفائدة التى تجنيها من تعريب الأفلام الجيدة محققة . وإذا كنا نعرب الكتب مقتنعين بفائدتها فلم نمنع تعريب الأفلام ؟ ولكن أى الأفلام نعرب ؟ هذه هى المسألة التى نراها تواجهنا الآن ، وكل ما يجب هو حسن الاختيار .

عباس خضر